(١)

حول انتشار الإسلام

كيف يُعَلِّل المبشرون والمستشرقون سر انتصار الإسلام

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م)

الإسلام شهادة بأن الله حق، وشهود لآثار ألوهيته في صحائف الكون، وصوغ للحياة النفسية والاجتماعية وفق ما أوحى الله لرسله، وإعداد أجيال البشر الحاضرة والمستقبلة للسير على هذا الصراط، ما نبض في أبدانهم عرق، وخالج أفئدتهم شعور.

والإسلام من قبل ذلك علاقة عامة بين الكائنات كلها وبين بارئها الأكبر جل جلاله، فالعلم من عرشه إلى فرشه فقير أبدا إلى ربه، قائم به، خاضع له، عان لأمره، وتلك حقيقة علمية لا يماري فيها إلا أحمق.

ومن ثم فإن التمرد على الله شذوذ مستغرب، والازورار عن دينه خطأ مبين، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾(آل عمران: ٨٣).

إن الإسلام لله هو الصلة الطبيعية الفذة بين المخلوق والخالق.

وإذا كان البشر في هذا العصر يتواضعون على حقائق هندسية وكيماوية وفلكية مقررة، ففي صدر هذه الحقائق يجب أن يعرف أن الله واحد، وأن السيرة التي يرتضيها من عباده دلالة على انقيادهم له، وتحقيقا لما يحبه لهم من خير، هي سيرة محمد بن عبدالله، فهو الإنسان الكامل الذي التقت في شخصه المثل الرفيعة للإنسانية كلها.

إن الشهادة بأن الله واحد بيان لحق الخالق على المخلوق.

والشهادة بأن محمدًا رسول الله بيان للطريق التي يسير فيها المخلوق كي

يرضي الخالق، وهاتان الشهادتان هما الدعامة الأولى للإسلام.

وقد فهم المسلمون من نصوص دينهم، أن صاحب الرسالة الخاتمة جاء متممًا لما مهد إخوانه الرسل والأنبياء السابقون.

وأن هؤلاء كانوا دعاة للإسلام بمعناه الشامل العميق.

وأن مرّ الزمان وتفريط الأتباع طمسا معالم الرسالات السابقة، وأتاحا للغلو والابتداع والتحريف أن تعدو على طبيعة الدين ووجهته.

فلم يكن بد من رسالة عامة ثابتة تعيد الحق إلى نصابه، وترد الكلم إلى مواضعه، وتجلو كل ما غشى وجه الفطرة من خرافة وهوى، وتضمن ألا يتكرر في المستقبل ما حدث في الماضي من زيغ وشذوذ.

فكان هذا القرآن الذي غلب الزمن، وبقي محفوظًا من كل ريبة. وكان رسوله الذي نشر الحق إلى أبعد مدى يبلغه جهد بشر، والذي صدع أركان الباطل، فمادت بعد لأي ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (**النحل**: ٦٣، ٦٤).

منهج الصحابة في نشر الدعوة

وانطلق صحابة محمد وأتباعه في أقطار الأرض يحملون البلاغ السماوي الأخير. وانطلق الصوام القوام الخاشعون المخبتون إلى كل فج عميق، يعرضون الإسلام على الناس، باللغة العالمية التي يفهمها أهل الأرض كلهم جميعًا، لغة الخلق الزكيّ، والسلوك العالي، نعم، إن الجيل الذي حمل الإسلام، وعبر به الأبعاد الشاسعة أرى الناس من نفسه نماذج رائقة، فدخل الناس في دين الله عن إعجاب ورغبة.

وما كادوا يتعمقون في هذا الدين، ويتعرفون دخائله، حتى صاروا حراسا على دعوته العامة مثل العرب الذين جاءوا به، أو أشد!.

وقد وقع قتال في أثناء سعي العرب لتحرير الشعوب السجينة، وفك الأغلال عنها، وهل كان يمكن قمع الاستعمار القديم، أو الحديث إلا بالسلاح؟

إن أنبل قتال وقع على ظهر الأرض، هو ما خاضه أتباع محمد لرد الرومان إلى أوروبا من حيث جاءوا، ولكسر شوكة المجوسية في فارس.

وإلا فكيف يتصور امرؤ راشد أن أربعة آلاف عربي مثلا يصلحون قوة غازية لفتح مصر وتوطيد الإسلام فيها جيلًا بعد جيل؟

إنه لولا انبهار الأمم بالدين الجديد، وتجاوبها معه، وإحساسها بأنه هدية الأقدار إليها، ما دانت لأهله، ولا دخلت فيه.

ماذا عسى يصنع أربعة آلاف رجل في قطر كمصر، أمام عشرات الألوف من جند الرومان ومشايعيهم؟

وهب أنهم جن في الوغى، وأن خصومهم هباء، ما الذي جعل جماهير الشعب تسالم الوافدين، ثم تشرح صدرا بعقائدهم، ثم تهب هي لنصرتها بعدما اعتنقتها؟

إنها طبيعة الحق عندما يحسن عرضه، وتنزاح العوائق أمام الرغبة فيه.

وما مصر إلا مثل لشقيقاتها التي كانت عانية في أسر الرومان، ثم شاعت أنوار الصدق في هذا الدين، فهوت إليه قلوبها، ثم حملت لواءه إلى يوم الناس هذا عن اعتزاز وحب.

لا إكراه في الدين

وعمر الباطل يطول بين الناس بمقدار ما تطول غيبة الحق عنهم، ولعل لهم عذرا في البقاء عليه ما داموا لا يعرفون غيره.

وقد كان الناس على نحلهم الأولى قبل الإسلام بين راض بها عن قصور، أو راض بها عن اقتناع، فلما ظهر الدين الجديد وتيسرت المقارنة والمقابلة، بدأ التحول العظيم، يشمل سواد الشعوب هنا وهناك، فما مضى قرن على البعثة حتى كان الإسلام ملء السمع والبصر، وكانت أجهزة الدولة الإسلامية ترقب هذا التحول من بعيد وهي دهشة، بل إن بعض الولاة استبقى ضريبة الجزية على من يدخل في الإسلام! كأن وظيفة الحاكم تعويق الناس عن الإيمان لا إغراؤهم باعتناقه.

وما نذكر هذه القصة إلا لنشير إلى كذب من يزعمون أن شائبة إكراه وقعت في انتشار الإسلام.

إن الدولة لم تستخدم قط أداة قسر على ترك دين واعتناق آخر كما وقع ويقع في أقطار أخرى لخدمة أديان أخرى.

وما حاجة الإسلام إلى الإكراه، ومبادئه تنساب إلى القلوب من تلقاء نفسها، لأنها الفطرة، وتعاليمه تنساق إلى العقول كما تنساق البديهيات التي يلقاها الفكر السليم، ولا يستطيع أمامها مراء؟

إن البيئة الحرة أخصب مكان لازدهار الإسلام، ولولا شقوة الناس ما نصبوا العوائق أمام رسالته ولتركوها تبين عن طبيعتها في هدوء.

مستشرق يزيف الحقائق

ومنذ أيام وقع في يدي كتاب من هذه الكتب التي يؤلفها المبشرون والمستشرقون ويملأونها بالطعون في الإسلام، والضغن على نبيه، ولما كنت قد أَلِفْت تهجم القوم، فإني لم أفزع لما ورد في الكتاب من تهم أعرف ويعرف غيري قيمتها.

لكن الكتاب الذي قرأته تضمن عبارات في التعليق على انتشار الإسلام أرى من المصلحة إثباتها، لأنها ترد نجاح الإسلام، وارتفاع شأنه إلى خلل طارئ على القوى المعارضة لا إلى صلاحيته الذاتية، وأصوله النفسية والفكرية.

قال المؤلف المذكور: إذا أمعنا النظر فيما كتبه مؤرخو الكنيسة منذ القرن الثالث للميلاد ألفينا حال الأمة النصرانية لذلك العهد بعيدة جدا عما وصفها به بعض المصنفين من تقوى وصلاح.

وذلك أنها فضلًا عن كونها لم تكن مؤيدة بالعقيدة الفعالة والغيرة والتقوى، ولم تكن راسخة على أساس التعليم الصحيح، وعلى الاتحاد وثبات الإيمان، كان رعاتها مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون العويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات، وقد انقسموا فيها إلى فرق وبدع لا تعد، ونفوا من صدورهم ما ندب إليه الانجيل من المودعة والمحبة والمؤاساة، وعدلوا إلى المناوآت والضغائن وسائر المفاسد، حتى إنهم بينما كانوا يتماحكون في أوهامهم في الدين أضاعوا جوهر الدين نفسه، وكادت مشاجراتهم فيه تستأصله.

ومعظم ما ننكره الآن على بعض فرق النصرانية من باطل العقائد، إنما نشأ وتأصل في تلك الأعصر المظلمة، فعاد بالنفع على الإسلام، وأعان على انتشاره.

ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القديسين والصور، فإنها قد بلغت وقتئذ مبلغًا يفوق كل ما نراه اليوم عند بعض فرق النصارى.[١]

أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي، وانتقض حبلها بمماحكات الأريوسيين والنساطرة واليعاقبة وغيرهم من أهل البدع.

الصراع على منصب الأسقفية

أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك داماسوس وأورسكينوس في المشاجرة على منصب الأسقفية- أي أسقفية روما- وما أفضى إلى احتدام

(١) لا تزال التماثيل تملأ الكنائس في الشرق والغرب إلى يومنا هذا، وهي تماثيل ترمق برهبة وحب، وتقبل أقدامها التماسا للبركة.

نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما، حتى إن الوالي لما رأى أنه لا قبل له بقمع هذا الشر انصرف عن المدينة وترك المتنازعين وشأنهما، وكان الفوز بعد ذلك لداماسوس.

قيل استمر القتل في الناس في هذه النازلة حتى بلغ عدد القتلى في كنيسة سيكينيوس وحدها مائة وسبعة وثلاثين في يوم واحد.

ولم يكن من العجيب أن يشتد حرصهما على تبوء ذلك المنصب المهم، لأن من يتبوأه يصبح ذا دنيا عريضة، وينال من صلات السيدات الرومانيات ثروة وافرة، فيخرج في المواكب والأبهة بالمركبات والمحفات، مسرفا في ترف العيش أكثر من إسراف الملوك، خلافا لما كان عليه أساقفة المدن الصغيرة من الاقتصاد والزهد ولو بعض الشيء.

ثم قال «فلما فشا في أولياء الأمور وأرباب الدين هذا الفساد في العقائد والأخلاق والسيرة نشأ عنه بالطبع فساد سيرة العامة من الناس فأصبحوا، على اختلاف طبقاتهم، وليس لأحدهم هم سوى جمع الأموال من الوجوه المحللة والمحرمة ثم إتلافها في سرف العيش وانتهاك حرمات الله»[1].

هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب.

في بلاد العرب

«أما حالها في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا- يقصد بلاد العرب- فلم تكن خيرًا من ذلك، فقد اشتهرت هذه البلاد منذ القديم بكثرة البدع، ولعل ذلك ناشئ عن حرية القبائل واستقلالها».

«فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت في الجسد ثم

---

(١) هذه حال جماهير الناس في أوروبا اليوم، أن المذاهب المادية تسيطر على أخلاقهم وأحوالهم، وفنون الإباحة تجعلهم عبيد شهواتهم، والسر في ذلك عدم وجود الإيمان الصحيح الذي يملأ فراغهم النفسي والفكري، وهذا المؤلف وأمثاله يطعنون مع ذلك في الإسلام بدل أن يخلوا له الطريق ليحل المشكلة.

يا باري القوس بريا ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

تنشر معه في اليوم الآخر، وقيل إن اريجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب».

«وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب ولا نقول نشأت فيها».

فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هي الله[١].

وفضلًا عن ذلك فقد اختلط بالعرب أيضًا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة، فأدخل محمد كثيرا من عقائدهم في دينه كما سنرى[٢].

أما اليهود الذين كانوا في سائر البلاد أذلاء لا يعتد بهم، فقد قويت شوكتهم في بلاد العرب، حيث لجأ كثير منهم إليها على أثر خراب بيت المقدس، وهودوا كثيرا من ملوك العرب وقبائلهم.

ولذا كان «محمد» في بادئ أمره يداريهم حتى إنه أخذ عنهم كثيرًا من مقالاتهم ورسومهم وعاداتهم تألفا لهم لعلهم يشايعونه، لكنهم جريا على سننهم المألوفة في العناد لم ينقادوا له بل ناصبوه العداوة، وكانوا من أشد خصومه، يحاربونه ويكايدونه دائمًا، ولم يتأت له قهرهم إلا بعد المشقة والعناء وتعريض نفسه لمهالك أودت بهم آخر الأمر[٣].

---

(١) هذه البدعة التي يرى المؤلف أنها انتشرت بين العرب قديمًا، ليست في الحق من مخترعات القدماء وحدهم، بل إن العصر الحاضر شهد مجمعًا مسكونيًا في روما جعل مريم فوق البشر!.

(٢) هذا هراء يشيع بين جمهرة المبشرين والمستشرقين والبراهين متكاثرة متضافرة على تفاهته.

(٣) الإسلام يحسن إلى أهل الكتاب جميعًا ما دامت مسالكهم معتدلة، فإذا أبوا إلا إهانته أو إساءته فلا بد من أن يدفع عن نفسه ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وما ذكرناه من شدة بغضهم له ولّد في قلبه آخر الأمر بغضًا شديدًا لهم فصار يعاملهم في باقي عمره بأقبح مما كان يعامل به النصارى ويكثر الطعن فيهم في قرآنه.

وقد تابعه المسلمون على ذلك إلى يومنا هذا فهم يفرقون بين اليهود والنصارى، ويعدون اليهود أحقر أمة على وجه الأرض وأذلها.

المسلمون بين الفرس والروم

وقد قال بعض من اشتهر بسداد الرأي في السياسة: إنه لا يتسنى لأحد أن يسود قوما وينشئ دولة ما لم تساعده الفرص، فإذا علمت هذا جزمت بأن اختلال أحوال النصرانية كان من الفرص التي أعانت محمدًا من الجهة الواحدة على نيل مآربه- كما أن وهن قوى الروم والفرس أطمعه من الجهة الأخرى في الظفر بمراده فيما يقدم عليه من هاتين المملكتين اللتين كانتا قبل ذلك من القوة على ما هو معلوم، ولو كانتا باقيتين على بأسهما لكانتا، ولا شك، حطمتا الإسلام وهو في مهده، وهم ينسبون فوزهم ذلك إلى دينهم الجديد، والعون الإلهي الذي وصل إليهم بسببه.

مسكين هذا المؤلف! إنه يحاول حجب الشمس بكفه، كيف يتصور عاقل أن العرب من غير الإسلام كانوا يستطيعون هزم الروم والفرس مهما ضربت الحرب بينهما واشتد الخلاف؟ لنفرض أن بين الروس والأمريكان نزاعًا، فهل معنى ذلك أن تستطيع المكسيك مثلًا الاستيلاء على الدولتين الكبيرتين؟ إن الإسلام خلق العرب خلقًا جديدًا، وبه وحده وقعت معجزة الفتح.

مشكلات التثليث

إن الرجل ينسب انتشار الإسلام على حساب الرومان خاصة إلى ما ساد بينهم من اختلاف مذهبي وشهوات بدنية ونفسية، ويرى أن هذا الاختلاف لفظي لا حقيقي، وأن تلك الشهوات موقوتة لا دائمة.

ونحن نصدقه في نصف ما قاله، ونخالفه في النصف الآخر، أو نصدقه فيما قاله ونخالفه في العلل التي ذكرها.

إن التثليث مولد ذاتي للخلاف على تراخي العصور.

ومشكلاته حقيقية لا شكلية.. وذلك بخلاف التوحيد المطلق الذي قرره الإسلام، ثم إن الإنسانية بعد نموها الفكري الظاهر، الذي لم يعهد مثله في تاريخها الأول تحتاج في إقناعها العقلي وتربيتها النفسية، وتنظيمها الاجتماعي والسياسي إلى دين يكافئ هذا الامتداد في مواهبها وخصائصها.. دين يشبع تعاونها الروحي، وتألقها الذهني.

إنها بحاجة إلى الدين الذي تعاون النبيون جميعًا على إبلاغ أصوله وتوطيد أركانه، ثم جاء صاحب الرسالة الخاتمة، فأعطاه صورته النهائية الحقيقية المشبعة.

وإذا لم تعترف أوروبا بهذا الدين، فستبقى آخر الدهر فريسة المذاهب المادية شرقية كانت أم غربية. وستبقى صريعة الشهوات التي تغتال الطهر في الأنفس، والعدل بين الأمم...

ولله الأمر من قبل ومن بعد.